رسالة من صديقي

جمعتني به الصدفة في بور سعيد منذ سنوات ، وكان آنذاك في الثانية والعشرين فتوشجت بيننا اواصر الصداقة ، وأفضى كل منا للآخر ببنات أفكاره ومكنونات صدره . وما اكثر ما كنا نأتي على حديث السياسة العربية وواقع امتنا المرير ، وكان كلما أوغلنا في البحث عن أسباب انهيارنا وتخلفنا ازداد تألماً وبدت على قسمات وجهه أمارات تأثر عميق .

وما أزال أذكر اننا شاهدنا يوماً ونحن نتجول في شوارع المدينة طفلا يجرر أطماره البالية وهو يلحق بضابط انكليزي ليبسط كف السؤال له وهذا الأخير يتكلف عدم الاكتراث وتجاهل طلبه . ولكن الطفل كان يزداد الحاحاً وتظاهراً بالمسكنة والمسغبة ظناً منه أن ذلك الضابط ذا البزة اللماعة سينفحه ولاشك بدراهم يبتهج لها فؤاده . غير أن الانكليزي المتعجرف اشمأز منه وركله وهو يزجره بكلمات قاسية ، اذكر منها : « ابتعد عني ايها المصري القذر » فذعر الطفل وارتد كسير الطرف مهيض الجناح . بينما تابع الضابط طريقه وهو يردد على مسمع منا هذه الكلمات التي تفوح منها رائحة الاستعمار الكريهة : « تباً لسكان هذه البلاد التي تنجب الأطفال ليحترفوا الاستعطاء . »

ولا تسل كم تألمت لسماع ذلك ، والتفت الى صديقي فاذا به يحرق الأرض ويتلمظ وهو يكظم من الغيظ الشيء الكثير . ثم تابعنا تجولنا بخطى وئيدة متثاقلة وصديقي واجم لاينبس ببنت شفة . وبعد ربع ساعة من الصمت الحزين انفرجت شفتاه عن هذا القسم المؤلم : « لا ، لالن أتزوج وانجب اطفالا يحترفون الاستعطاء » ثم اردف : « نعم سأبقى عازباً ! سأبقى عازباً حتى يقبض الله روحي . »

واضطرتني ظروفي القاهرة الى مغادرة ارض الكنانة بعد تلك الحادثه . وافترقنا على ان نتراسل من حين لآخر .

لقد كانت رسائله تصلني كل فترة فابتهج لقراءتها . ولم تمض سنة على هذه المكاتبة حتى انقطعت الاسباب بيننا ولم أعد أتلقى منه جواباً .

وكدت أنساه لولم تذكرنيه معركة القنال ووقفة الشعب المصري المشرفة في وجه الاستعمار . وكم وددت في الآونة الأخيرة أن أكاتبه واستطلع أخباره ولكن كيف السبيل الى ذلك وعنوانه قد أصبح نسياً منسياً ؟ آه ! ليتني بقيت على اتصال دائم به !

وأمس مساء استلقيت في سريري وأخذت أقرأ مقالا عن استبسال الابطال المصريين في المعركة الأخيرة ، وما إن فرغت من قراءة ذلك حتى اشتدت بي الرغبة لمراسلته .

ولم أدر كيف اغمضت عيني بعد ارق اقض مضجعي . غير أن الرغبة الملحاحة في تنسم اخباره أبت الا أن تحقق ذاتها واذا بها تستحيل في الحلم رسالة من ذلك الصديق القديم جاء فيها ما يلي :

« عزيزي :

هأنا اكتب اليك من معسكرنا في بور سعيد وحولي اخوان في الجهاد يشع بريق الأمل والنصر في أعينهم وتطفح بالبشر وجوههم ، وهم يتبادلون نظرات معبرة تؤكد عزمهم الوطيد على الاستشهاد في سبيل بلادهم الحبيبة .

قد لا تصدق وأنت تقرأ هذه الأسطر أنني أنا الذي خططتها بعدما عرفته عني من التشاؤم وفقدان الثقة بمستقبل هذه الأمة التي قيض الله لها الثورة لتبعثها من سباتها العميق وتوقظ فيها الشعور الوطني الصادق .

انك ولا شك تذكر ذلك القسم المغلظ وعزمي على العزوف عن الزواج . ولكنني اليوم أؤكد لك شعوري بالعزة يفعم كياني ثقة وايماناً ، أنني سوف أتزوج وانجب لمصر أبطالا يحافظون على استقلالها ويرفعون الرأس فخورين ببسالة قومهم ويروون أحاديث البطولة عن شهدائهم الميامين الذين سقطوا في ساحة الشرف لتحيا بلادهم عزيزة أبية .

سوف أنجب ابناء ، يفاخرون العالم بانتسابهم الى مصر المجاهدة التي خاضت معركة القومية العربية لترد للقيم اعتبارها ولتبرهن للمستعمرين ذوي الضمائر السوداء أن الحق يعلو ولا يعلى عليه وأن الجولة الأخيرة له وحده وأن الباطل كان زهوقاً .

سوف أنجب رجالا يبشرون بالمبادئ الانسانية ويصرخون في وجه المستبدين الآثمين قائلين : كفاكم تعسفاً وعبثاً بمقدرات الشعوب ، وكفاكم تحايلا على الديمقراطية التي تقترفون باسمها الجرائم النكراء ، فهي والله منكم براء .

أجل يا عزيزي ، سأتزوج وأنجب أبناء يعتزون بي واعتز بهم ! سأنجب ابناء يشعرون بالكرامة تجري في دمائهم فلا يحترفون الإستعطاء ولا يطأطئون الرأس ويخفضون الجبين ، الا لباريهم .

صديقك الجندي المجاهد

محمد حليحل

قضايا الفكر المعاصر

سلسلة كتب تتناول أهم القضايا الفكرية التي تشغل المثقفين اليوم ، مع دراسة وافية لاعلامها وممثليها العالميين

صدر منها

١ ـ سارتر والوجودية

تأليف ر . م . البيريس ترجمة الدكتور سهيل ادريس

٢ ـ كامو والتمرد

تأليف روبير دولوبيه ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تطلب من دار العلم للملايين
ودار الآداب ـ بيروت